بفتح الذال . رواه ابن جرير إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير فى قوله (وظنوا أنهم قد كذبوا) إلى أتباع الرسل من المؤمنين ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم أى وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخففة فيما وعدوا به من النصر ، وأما ابن مسعود فقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن فضيل عن محمش[1] بن زياد الضبى عن تميم بن حزم[2] قال سمعت عبدالله بن مسعود يقول فى هذه الآية (حتى إذا استيأس الرسل) من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف. فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك وانتصر لها ابن جرير ووجه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكلية ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه والله أعلم

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى لقد كان فى خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين (عبرة لأولى الألباب وهى العقول (ما كان حديثاً يفترى) أى وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أى يكذب ويختلق (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير (وتفصيل كل شىء) من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والإخبار عن الأمور الجلية وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات فلهذا كان (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد ، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضره ، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة. آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام ولله الحمد والمنة وبه المستعان

﴿ تفسير سورة الرعد وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فقد تقدم فى أول سورة البقرة وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولاريب ولهذا قال (تلك آيات الكتاب) أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن وقيل التوراة والإنجيل قاله مجاهد وقتادة وفيه نظر بل هو بعيد ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال (والذى أنزل إليك) أى يا محمد (من ربك الحق) خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله (والذى أنزل إليك من ربك) هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا ، واستشهد بقول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق ، والعناد والنفاق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي

(١) فى نسخة ابن جرير جحش (٢) فى النسخة المكية جثامة وفى نسخة ابن جرير حذلم بالذال والصواب الذى فى التقريب أنه حزلم بالزاى المعجمة.

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لاتنال ولا يدرك مداها ، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء وبعد مابينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام وسمكها فى نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام وسمكها خمسمائة عام وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كما قال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الآية. وفى الحديث « ماالسموات السبع ومافيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسى فى العرش المجيد كتلك الحلقة فى تلك الفلاة » وفى رواية « والعرش لايقدر قدره إلا الله عز وجل » وجاء عن بعض السلف أن بعد مابين العرش الى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة وبعد مابين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة وهو من ياقوتة حمراء . وقوله (بغير عمد ترونها) روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا لها عمد ولكن لاترى ، وقال إياس بن معاوية السماء على الأرض مثل القبة يعنى بلا عمد وكذا روى عن قتادة وهذا هو اللائق بالسياق ، والظاهر من قوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فعلى هذا يكون قوله (ترونها) تأكيدا لنفى ذلك أى هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها وهذا هو الأكمل فى القدرة ، وفى شعر أمية ابن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه كما ورد فى الحديث ، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه

وأنت الذى من فضل منّ ورحمة * بعثت إلى موسى رسولا مناديا * فقلت له فاذهب وهرون فادعوا
إلى الله فرعون الذى كان طاغيا * وقولا له هل أنت سويت هذه * بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رفعت هذه * بلا عمد أو فوق ذلك بانيا ؟ * وقولا له هل أنت سويت وسطها
منيرا إذا ماجنك الليل هاديا * وقولا له من يرسل الشمس غدوة * فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من أنبت الحب فى الثرى * فيصبح منه العشب يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه * ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوا كبيرا . وقوله (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) قيل المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة كقوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) وقيل المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلى بطن الأرض من الجانب الآخر فانهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش لأنه على الصحيح الذى تقوم عليه الأدلة قبة مما يلى العالم من هذا الوجه وليس بمحيط كسائر الأفلاك لأن له قوائم وحملة يحملونه ، ولا يتصور هذا فى الفلك المستدير وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة ولله الحمد والمنة . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التى هى أشرف وأعظم من الثوابت فاذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل فى التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى كما نبه بقوله تعالى (لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) مع أنه قد صرح بذلك بقوله (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ، وقوله (يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أى يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ

وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوى شرع فى ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلى فقال (وهو الذى مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض وأرساها بجبال راسيات شامخات وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقى ماجعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح (من كل زوجين اثنين) أى من كل شكل صنفان (يغشى الليل النهار) أى جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا فاذا ذهب هذا غشيه هذا واذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضا فى الزمان كما يتصرف فى المكان والسكان (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى فى آلاء الله وحكمه ودلائله . وقوله (وفى الأرض قطع متجاورات) أى أراض يجاور بعضها بعضا مع أن هذه طيبة تنبت ماينفع الناس وهذه سبخة مالحة لاتنبت شيئا . هكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد ، ويدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء وهذه محجرة وهذه سهلة وهذه مرملة وهذه سميكة وهذه رقيقة والكل متجاورات فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لاإله إلاهو ولارب سواه ، وقوله (وجنات من أعناب وزرع ونخيل) يحتمل أن تكون عاطفة على جنات فيكون (وزرع ونخيل) مرفوعين . ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب فيكون مجرورا ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة . وقوله (صنوان وغير صنوان) الصنوان هو الأصول المجتمعة فى منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه كما جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » وقال سفيان الثورى وشعبة عن أبى إسحق عن البراء رضى الله عنه : الصنوان هى النخلات فى أصل واحد وغير الصنوان المتفرقات . وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد . وقوله (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) قال الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) قال « الدقل والفارسى والحلو والحامض » رواه الترمذى وقال حسن غريب أى هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها فهذا فى غاية الحلاوة وهذا فى غاية الحموضة وذا فى غاية المرارة وذا عفص وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا ثم يستحيل إلى طعم آخر باذن الله تعالى ، وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذى لاينحصر ولا ينضبط ، ففى ذلك آيات لمن كان واعيا ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على مايريد ولهذا قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ (وإن تعجب) من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله فى خلقه على أنه القادر على مايشاء ومع مايعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالم خلقا جديدا وقد اعترفوا وشاهدوا ماهو أعجب مما كذبوا به فالعجب من قولهم (أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد) وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالاعادة عليه أسهل كما قال تعالى (أولم يروا أن الله الذى

خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير) ثم نعت المكذبين بهذا فقال (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم) أى يسبحون بها فى النار (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ماكثون فيها أبدا لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى (ويستعجلونك) أى هؤلاء المكذبون (بالسيئة قبل الحسنة) أى بالعقوبة كما أخبر عنهم فى قوله (وقالوا يا أيها الذى أنزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ، ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) الآيتين وقال تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) وقال (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا) الآية أى عقابنا وحسابنا كما قال مخبرا عنهم (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله قال الله تعالى (وقد خلت من قبلهم المثلاث) أى قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ، ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) وقال (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقال (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم) إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) الآية قال رسول الله ﷺ « لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحدا العيش ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد » وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن عثمان أبى حسان الرمادى[1] أنه رأى رب العزة فى النوم ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع فى رجل من أمته فقال له ألم يكفك أنى أنزلت عليك فى سورة الرعد (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ثم انتبهت

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجا وأنهاراً قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية قال الله تعالى (إنما أنت منذر) أى إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها ، و (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله (ولكل قوم هاد) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى ولكل قوم داع ، وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية يقول الله تعالى أنت يا محمد منذر وأنا هادى كل قوم وكذا قال محمد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد وعن مجاهد (ولكل قوم هاد) أى نبى كقوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد وقال أبو صالح ويحيى بن رافع (ولكل قوم هاد) أى قائد وقال أبو العالية : الهادى القائد والقائد الإمام والإمام العمل وعن عكرمة وأبى الضحى (ولكل قوم هاد) قالا هو محمد ﷺ وقال مالك (ولكل قوم هاد) يدعوهم إلى الله عز وجل وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى أحمد بن يحيى الصوفى حدثنا الحسن بن الحسين الأنصارى حدثنا معاذ بن مسلم حدثنا الهروى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير

(١) فى النسخة المكية : الزيادى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزلت (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) قال وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال « أنا المنذر ولكل قوم هاد » وأومأ بيده إلى منكب على فقال « أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى » وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا المطلب بن زياد عن السدى عن عبد خير عن على (ولكل قوم هاد) قال الهادى رجل من بنى هاشم قال الجنيد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس فى إحدى الروايات وعن أبى جعفر محمد بن على نحو ذلك .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات كما قال تعالى (ويعلم ما فى الأرحام) أى ما حملت من ذكر أو أنثى أو حسن أو قبيح . أو شقى أو سعيد أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة) الآية وقال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) أى خلقكم طورا من بعد طور كما قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقى أو سعيد » وفى الحديث الآخر « فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى ؟ أى رب أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك » وقوله (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال البخارى حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا مالك عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » وقال العوفى عن ابن عباس (وما تغيض الأرحام) يعنى السقط (وما تزداد) يقول ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ومن تحمل تسعة أشهر ومنهن من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال ما نقصت من تسعة وما زاد عليها ، وقال الضحاك وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين وولدتنى وقد نبتت ثنيتى وقال ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل ، وقال مجاهد (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال ما ترى من الدم فى حملها وما تزداد على تسعة أشهر وبه قال عطية العوفى والحسن البصرى وقتادة والضحاك وقال مجاهد أيضا إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة مثل أيام الحيض وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد وقال مجاهد أيضا (وما تغيض الأرحام) إراقة الدم حتى يخص الولد (وما تزداد) إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم ، وقال مكحول : الجنين فى بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم وإنما يأتيه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل ، فإذا وقع إلى الأرض استهل واستهلاله استنكاره لمكانه فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثدى أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم ثم يصير طفلا يتناول الشىء بكفه فيأكله فإذا هو بلغ قال هو الموت أو القتل أتى لى بالرزق ؟ فيقول مكحول يا ويحك ، غذاك وأنت فى بطن أمك وأنت طفل صغير حتى إذا اشتددت وعقلت قلت هو الموت أو القتل أتى لى بالرزق ، ثم قرأ مكحول (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) الآية وقال

قتادة (وكل شيء عنده بمقدار) أى بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلا معلوما . وفى الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت اليه أن ابناً لها فى الموت وأنها تحب أن يحضره فبعث اليها يقول « إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب » الحديث بتمامه ، وقوله (عالم الغيب والشهادة) أى يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء (الكبير) الذى هو أكبر من كل شيء (المتعال) أى على كل شيء (قد أحاط بكل شيء علما) وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعا وكرها .

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فانه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وقال (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وقالت عائشة رضى الله عنها : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى علىّ بعض كلامها فأنزل الله (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وقوله (ومن هو مستخف بالليل) أى مختف فى قعر بيته فى ظلام الليل (وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه فان كلاهما فى علم الله على السواء كقوله تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم) الآية وقوله تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) . وقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وآخر من قدامه فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان كما جاء فى الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » وفى الحديث الآخر « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم » وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) والمعقبات من الله هى الملائكة ، وقال عكرمة عن ابن عباس (يحفظونه من أمر الله) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فاذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له : الملك وراءك إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) قال ذلك ملك من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس ، وقال العوفى عن ابن عباس (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) يعنى ولى السلطان يكون عليه الحرس ، وقال عكرمة فى تفسيرها هؤلاء الأمراء الموا كب من بين يديه ومن خلفه ، وقال الضحاك فى الآية هو السلطان المحروس من أمر الله وهم أهل الشرك ، والظاهر والله أعلم أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم ، وقد روى الإمام أبو جعفر

ابن جرير ههنا حديثاً غريباً جداً فقال حدثني المثنى حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري حدثنا علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوي قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال « ملك على يمينك على حسناتك وهو أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرا ، واذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين اكتبها ؟ قال لا ، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات ، فاذا قال ثلاثا قال اكتبها أراحنا الله منه فبئس القرين ، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا ، يقول الله (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) ـ الآية ـ وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك ، واذا تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وملك قائم على فيك لايدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي ، وإبليس بالنهار وولده بالليل » . وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أسود بن عامر حدثنا سفيان حدثني منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ «مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا وإياك يارسول الله ، قال «وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » انفرد باخراجه مسلم وقوله (يحفظونه من أمر الله) قيل المراد حفظهم له من أمر الله رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم وقال قتادة (يحفظونه من أمر الله) قال وفي بعض القراءات يحفظونه بأمر الله ، وقال كعب الأحبار: لو بجلي لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئا يقينه لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا لتخطفتم . وقال أبو أمامة مامن آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له ، وقال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك فقال إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر فاذا جاء القدر خليا بينه وبينه . إن الأجل جنة حصينة ، وقال بعضهم (يحفظونه من أمر الله) بأمر الله كما جاء في الحديث أنهم قالوا يارسول الله أرأيت رقيا نسترقي بها هل ترد من قدر الله شيئا ، فقال « هي من قدر الله » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال أوحى الله الى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك انه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها الى معصية الله الا حول الله عنهم مايحبون الى ما يكرهون ثم قال ان تصديق ذلك في كتاب الله (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وقد ورد هذا في حديث مرفوع فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابة صفة العرش حدثنا الحسن بن علي حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي حدثنا أبو حنيفة اليماني الأنصاري عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأني وإذا سألته عن الخبر أنبأني وإنه حدثني عن ربه عزوجل قال « قال الرب وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي مامن قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى مايحبون من رحمتي » وهذا غريب وفي إسناده من لاأعرفه

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق وهو مايرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب ، وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال: البرق: الماء . وقوله (خوفا وطمعا) قال قتادة خوفا للمسافر يخاف

أذاه ومشقته وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله (وينشىء السحاب الثقال) أى ويخلقها منشأة حديدة وهى لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد : السحاب الثقال الذى فيه الماء قال (ويسبح الرعد بحمده) كقوله (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرنى أبى قال كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن فى المسجد فمر شيخ من بنى غفار فأرسل إليه حميد فلما أقبل قال يا ابن أخى وسع فيما بينى وبينك فإنه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حتى جلس فيما بينى وبينه فقال له حميد ما الحديث الذى حدثتنى عن رسول الله ﷺ فقال له الشيخ سمعت عن شيخ من بنى غفار أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » والمراد والله أعلم أن نطقها الرعد وضحكها البرق ، وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكا ولا آنس منه منطقا فضحكه البرق ومنطقه الرعد، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال بلغنا أن البرق ، ملك له أربعة وجوه : وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد فإذا مصع بذنبه فذاك البرق ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحجاج حدثنا أبو مطر عن سالم عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » ورواه الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم فى مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة عن أبى مطر ولم يسم به ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إسرائيل عن أبيه عن رجل عن أبى هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال « سبحان من يسبح الرعد بحمده » وروى عن على رضى الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الرعد يقول : سبحان من سبحت له . وكذا روى عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد أنهم كانوا يقولون كذلك ، وقال الأوزاعى كان ابن أبى زكريا يقول : من قال حين يسمع الرعد سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقة ، وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويقول إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض رواه مالك فى موطئه والبخارى فى كتاب الأدب

وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود الطيالسى حدثنا صدقة بن موسى حدثنا محمد بن واسع عن معمر بن نهار عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « قال ربكم عز وجل لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتهم صوت الرعد » وقال الطبرانى حدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا أبو كامل الجحدرى حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر حدثنا عبد الكريم حدثنا عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فانه لا يصيب ذاكرا » وقوله تعالى (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) أى يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ولهذا تكثر فى آخر الزمان كما قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا عمارة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتى الرجل القوم فيقول من صعق قبلكم الغداة فيقولون صعق فلان وفلان وفلان » ، وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا إسحق حدثنا على بن أبى سارة الشيبانى حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال « اذهب فادعه لى » قال فذهب إليه فقال يدعوك رسول الله ﷺ ، فقال له من رسول الله ، وما الله ، أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال يا رسول الله قد خبرتك أنه أعتى من ذلك قال لى كذا وكذا ، فقال لى « ارجع إليه الثانية » فذهب فقال له مثلها فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك . فقال « ارجع اليه فادعه » فرجع اليه الثالثة قال فأعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزل الله عز وجل (ويرسل الصواعق) الآية ، ورواه ابن جرير من حديث على بن أبى سارة به ، ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبدة بن عبد الله عن يزيد

ابن هارون عن ديلم بن غزوان عن ثابت عن أنس فذكر نحوه وقال : حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا أبان ابن يزيد حدثنا أبو عمران الجونى عن عبد الرحمن بن صحار العبدى أنه بلغه أن النبي ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال أرأيتكم ربكم أذهب هو ؟ أم فضة هو؟ أم لؤلؤ هو ؟ قال فبينا هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقحف رأسه ونزلت هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : جاء يهودى فقال يا محمد أخبرنى عن ربك من أى شىء هو؟ من نحاس هو، أم من لؤلؤ أو ياقوت ،قال فجاءت صاعقة فأخذته وأنزل الله (ويرسل الصواعق) الآية

وقال قتادة ذكر لنا أن رجلا أنكر القرآن وكذب النبي ﷺ فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل الله (ويرسل الصواعق) الآية وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا فقال له رسول الله ﷺ « يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة » يعنى الأنصار ، ثم إنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة فانطلقا فى أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول يا آل عامر غدة كغدة البكر وموت فى بيت سلولية ،حتى ماتا لعنهما الله ، وأنزل الله فى مثل ذلك (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله) وفى ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه

أخشى على أربد الحتوف ولا * أرهب نوء السماك والأسد
فجعنى الرعد والصواعق بالـ * ـفارس يوم الكريهة النجد

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا مسعدة بن سعيد العطار حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى حدثنى عبد العزيز ابن عمران حدثنى عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما عن عطاء بن يسار عن ابن عباس أن أربد بن قيس ابن حز بن جليد بن جعفر بن كلاب وعامر بن الطفيل بن مالك قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه فقال عامر بن الطفيل يا محمد ما تجعل لى إن أسلمت ، فقال رسول الله ﷺ « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال عامر بن الطفيل أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك ، قال رسول الله ﷺ « ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل » قال أنا الآن فى أعنة خيل نجد اجعل لى الوبر ولك المدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا » فلما قفلا من عنده قال عامر : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يمنعك الله » فلما خرج أربد وعامر قال عامر يا أربد أنا أشغل عنك محمدا بالحديث فاضربه بالسيف فان الناس إذا قتلت محمدا لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب فنعطيهم الدية ، قال أربد افعل ، فأقبلا راجعين إليه فقال عامر يا محمد قم معى أكلمك فقام معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه وسل أربد السيف فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف فلم يستطع سل السيف فأبطأ أربد على عامر بالضرب فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كانا بالحرة ـ حرة راقم ـ نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا اشخصا يا عدوى الله لعنكما الله فقال عامر من هذا يا سعد، قال هذا أسيد بن حضير الكتائب فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته فأدركه الليل فى بيت امرأة من بنى سلول فجعل يمس قرحته فى حلقه ويقول غدة كغدة الجمل فى بيت سلولية يرغب أن يموت فى بيتها، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا فأنزل الله فيهما (الله يعلم ما تحمل كل أنثى — إلى قوله — وما لهم من دونه من وال) قال المعقبات من أمر الله يحفظون محمدا ﷺ ، ثم

ذكر أربد وماقتله به فقال (ويرسل الصواعق) الآية وقوله (وهم يجادلون فى الله) أى يشكون فى عظمته وأنه لا إله إلاهو (وهو شديد المحال) قال ابن جرير شديدة مماحلته فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره ، وهذه الآية شبيهة بقوله (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) وعن على رضى الله عنه (وهو شديد المحال) أى شديد الأخذ ، وقال مجاهد : شديد القوة .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه (له دعوة الحق) قال التوحيد رواه ابن جرير ، وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر (له دعوة الحق) لا إله إلا الله (والذين يدعون من دونه) الآية أى ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله (كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه) قال على بن أبى طالب كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدا بيده فكيف يبلغ فاه ؟ وقال مجاهد (كباسط كفيه) يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبدا . وقيل المراد كقابض يده على الماء فانه لا يحكم منه على شىء كما قال الشاعر :

فانى وإياكم وشوقاً إليكم * كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الآخر فأصبحت مما كان بينى وبينها * من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذى يبسط يده إلى الماء إما قابضا وإما متناولا له من بعد كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه الذى جعله محلا للشرب فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره لا ينتفعون بهم أبدا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولهذا قال (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال)

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء ودان له كل شىء ولهذا يسجد له كل شىء طوعا من المؤمنين وكرها من الكافرين (وظلالهم بالغدو) أى البكر (والآصال) وهو جميع أصيل وهو آخر النهار كقوله تعالى (أولم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله) الآية

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعا ولا ضرا أى لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب ومماثله فى الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أى ليس الأمر كذلك فانه لا يشابهه شىء ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما

ملك وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لايشفع أحد عنده إلا بإذنه (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (وكم من ملك فى السموات) الآية وقال (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) فاذا كان الجميع عبيدا فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم وخالفوهم فحقت عليهم كلمة العذاب لامحالة (ولا يظلم ربك أحدا)

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه والباطل فى اضمحلاله وفنائه فقال تعالى (أنزل من السماء ماء) أى مطرا (فسالت أودية بقدرها) أى أخذ كل واد بحسبه فهذا كبير وسع كثيرا من الماء وهذا صغير وسع بقدره وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها فمنها مايسع علما كثيرا ومنها من لايتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها (فاحتمل السيل زبدا رابياً) أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه هذا مثل وقوله (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أومتاع) الآية هذا هو المثل الثانى وهو مايسبك فى النار من ذهب أوفضة ابتغاء حلية أى ليجعل حلية أونحاسا أو حديدا فيجعل متاعا فانه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولادوام له كما أن الزبد لايثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ولهذا قال (فأما الزبد فيذهب جفاء) أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبي الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شىء ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ولهذا قال (وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) كقوله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون) وقال بعض السلف كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله تعالى يقول (ومايعقلها إلا العالمون قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله (فأما الزبد) وهو الشك (فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) وهو اليقين وكما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه فى النار فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك، وقال العوفى عن ابن عباس قوله (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابياً) يقول احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودمنة (ومما يوقدون عليه فى النار) فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد فللنحاس والحديد خبث فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء فأما ماينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ماينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله والعمل السيء يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقى كما بقى ماينفع الناس فى الأرض وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل فاذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيح الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وهكذا روى فى تفسيرها عن مجاهد والحسن البصرى وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا وهما قوله (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله) الآية ثم قال (أوكصيب من

السماء فيه ظلمات ورعد وبرق.) الآية وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين (أحدهما) قوله(والذين كفروا أعمالهم كسراب) الآيه والسراب إنما يكون فى شدة الحر ولهذا جاء فى الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فماتريدون؟ فيقولون أى ربنا عطشنا فاسقنا فيقال ألا تردون ؟ فيردون النار فاذا هى كسراب يحطم بعضها بعضا ثم قال تعالى فى المثل الآخر (أو كظلمات فى بحر لجى) الآية وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به فعلم وعلم ؛ ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » فهذا مثل مائى وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ماحدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها — قال — فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها » وأخرجاه فى الصحيحين أيضا فهذا مثل نارى

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال (للذين استجابوا لربهم) أى أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم (الحسنى) وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال(أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً) وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقوله (والذين لم يستجيبوا له)أى لم يطيعوا الله(لو أن لهم مافى الأرض جميعا) أى فى الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به ولكن لايتقبل منهم لأنه تعالى لايقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا (أولئك لهم سوء الحساب) أى فى الدار الآخرة . أى يناقشون على النقير والقطمير والجليل والحقير ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال (ومأواهم جهنم وبئس المهاد)

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول تعالى لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى (أنزل إليك) يا محمد (من ربك) هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا لا يضاد شىء منه شيئا آخر فأخباره كلها حق وأوامره ونواهيه عدل كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) أى صدقاً فى الإخبار ، وعدلا فى الطلب فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يامحمد ومن هو أعمى لايهتدى إلى خير ولايفهمه ولو فهمه ماانقاد له ولاصدقه ولااتبعه كقوله تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال فى هذه الآية الكريمة (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى أفهذا كهذا؟لااستواء،وقوله(إنما يتذكر أولو الألباب) أى إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر. وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف (ويخشون ربهم) أى فيما يأتون وما يذرون من الأعمال يراقبون الله فى ذلك ويخافون سوء الحساب فى الدار الآخرة فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) أى عن المحارم والمآثم ففطموا أنفسهم عنها لله عزوجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه (وأقاموا الصلاة) بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى (وأنفقوا مما رزقناهم) أى على الذين يجب عليهم الانفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين (سرا وعلانية) أى فى السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار (ويدرءون بالحسنة السيئة) أى يدفعون القبيح بالحسن، فاذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحاً وعفوا كقوله تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ولهذا قال مخبرا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ثم فسر ذلك بقوله (جنات عدن) والعدن الإقامة أى جنات إقامة يخلدون فيها، وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد، وقال الضحاك فى قوله (جنات عدن) مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها رواها ابن جرير، وقوله (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الأباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته كما قال تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) الآية وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والانعام والاقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام، وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنى سعيد بن أبى أيوب حدثنا معروف ابن سويد الجزامى عن أبى عشانة المعافرى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول إنهم كانوا عبادا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء — قال — فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)» ورواه أبو القاسم الطبرانى عن أحمد بن رشدين عن أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب عن عمر بن الحارث عن أبى عشانة سمع عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادى

الذين قاتلوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى وجاهدوا فى سبيلى ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ») وقال عبدالله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثنا أرطاة بن المنذر سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول جلست إلى أبى أمامة فقال : إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك فيستأذن فيقول للذى يليه ملك يستأذن ويقول الذى يليه للذى يليه ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا فيقول أقربهم للمؤمن ائذنوا له ويقول الذى يليه للذى يليه ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبى الحجاج يوسف الإلهانى قال سمعت أبا أمامة فذكر نحوه وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول فيقول لهم «(سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) » وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مالهم فى الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ماصار اليه المؤمنون كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم فى الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء (ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض) كما ثبت فى الحديث « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » وفى رواية « وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » ولهذا قال (أولئك لهم اللعنة) وهى الإبعاد عن الرحمة (ولهم سوء الدار) وهى سوء العاقبة والمآل (ومأواهم جهنم وبئس المهاد) وقال أبو العالية فى قوله تعالى (والذين ينقضون عهد الله) الآية قال هى ست خصال فى المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وأفسدوا فى الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال : إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء لما له فى ذلك من الحكمة والعدل وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا كما قال (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة فقال (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) كما قال (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) وقال (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا اسماعيل بن أبى خالد عن قيس عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة رواه مسلم فى صحيحه . وفى الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدى أسك ميت والأسك الصغير الأذنين فقال « والله للدنيا أهون على الله

من هدا على أهله حين ألقوه » .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾

يخبر تعالى عن قيل المشركين (لولا) أى هلا (أنزل عليه آية من ربه) كقولهم (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة وأن الله قادر على إجابة ماسألوا ، وفى الحديث أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً وأن يجرى لهم ينبوعا وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يامحمد أعطيتهم ذلك فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال « بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة » ولهذا قال لرسوله (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) أى هو المضل والهادى سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أولم يجبهم إلى سؤالهم فان الهداية والاضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه كما قال (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) وقال (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ولهذا قال (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) أى ويهدى إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ولهذا قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى هو حقيق بذلك وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: فرح وقرة عين . وقال عكرمة نعم مالهم ، وقال الضحاك غبطة لهم ، وقال إبراهيم النخعى خير لهم ، وقال قتادة هى كلمة عربية يقول الرجل طوبى لك أى أصبت خيراً وقال فى رواية طوبى لهم حسنى لهم (وحسن مآب) أى مرجع وهذه الأقوال شىء واحد لامنافاة بينها ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس (طوبى لهم) قال هى أرض الجنة بالحبشية ، وقال سعيد بن مسجوع: طوبى اسم الجنة بالهندية وكذا روى السدى عن عكرمة طوبى لهم هى الجنة وبه قال مجاهد وقال العوفى عن ابن عباس لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وذلك حين أعجبته .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر عن شهر بن حوشب قال طوبى شجرة فى الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة وهكذا روى عن أبى هريرة وابن عباس ومغيث بن سمى وأبى إسحق السبيعى وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة فى الجنة فى كل دار منها غصن منها ، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن ، وقد قال عبد الله بن وهب حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا « طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال يارسول الله : طوبى لما رآك وآمن بك ، قال « طوبى لما رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » قال له رجل وما طوبى ، قال « شجرة فى الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وروى البخارى ومسلم جميعاً عن إسحق بن راهويه عن مغيرة المخزومى عن وهيب عن أبى حازم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها » قال فحدثت به النعمان بن أبى عياش الزرقى فقال حدثنى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام

ما يقطعها » وفى صحيح البخارى من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله تعالى (وظل ممدود) قال « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا فليح عن هلال بن على عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة اقرأوا إن شئتم وظل ممدود » أخرجاه فى الصحيحين وفى لفظ لأحمد أيضا حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين — أو مائة سنة — هى شجرة الخلد » وقال محمد ابن إسحق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى فقال « يسير فى ظل الغصن منها الراكب مائة سنة — أو قال — يستظل فى الفنن منها مائة راكب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » رواه الترمذى وقال إسماعيل بن عياش عن سعيد بن يوسف عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلام الأسود قال سمعت أبا أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى فتفتح له أكمامها فيأخذ من أى ذلك شاء ، إن شاء أبيض وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن » وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: طوبى شجرة فى الجنة يقول الله لها تفتقى لعبدى عما شاء فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها ، وعما شاء من الكسوة ، وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثرا غريبا عجيبا ، قال وهب رحمه الله إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرها رياط وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها يافوت وترابها كافور ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل وهى مجلس لأهل الجنة فبينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا ووبرها كخز المرعزى من لينه عليها رحال ألواحها من ياقوت ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق فيفتحونها يقولون إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال فيركبونها فهى أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش نجبا من غير مهنة يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى ولا برك راحلة برك الأخرى ، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرحل وأخيه ، قال فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه قالوا اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والاكرام قال فيقول تعالى عند ذلك : أنا السلام ومنى السلام وعليكم حقت رحمتى ومحبتى ، مرحبا بعبادى الذين خشونى بغيب وأطاعوا أمرى . قال فيقولون ربنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك فأذن لنا فى السجود قدامك . قال فيقول الله إنها ليست بدار نصيب ولا عبادة ولكنها دار ملك ونعيم . وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلونى ما شئتم فان لكل رجل منكم أمنيته فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنية ليقول ربى تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها رب فآتنى مثل كل شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا فيقول الله تعالى لقد قصرت بك أمنيتك ولقد سألت دون منزلتك . هذا لك منى لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قصر يد، قال ثم يقول اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال قال فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة متظاهرة فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما ولا ريح ولا طيب إلا قد عبق بهما ينفذ صوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء يربان. له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلان ويتعلقان به ويقولان له والله ما ظننا

أن الله يخلق مثلك ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا فى الجنة حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له ، وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد فانظروا إلى موهوب ربكم الذى وهب لكم فإذا هو بقباب فى الرفيق الأعلى وغرف مبنية من الدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء ، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها ، فلولا أنه مسخر إذاً لا لتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقرى الأحمر وما كان فيها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان فيها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء قوائمها وأركانها من الجوهر وشرفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان ، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من يا قوت أبيض منفوخ فيها الروح تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق فانطلقت بهم تلك البارذين تزف بهم ببطن رياض الجنة ، فلما انتهوا إلى منازلهم وحدوا الملائكة قعودا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم ، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحور مقصورات فى الخيام ، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم وربنا ، قال هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا ربنا رضينا فارض عنا ، قال برضاى عنكم حللتم دارى ونظرتم إلى وجهى وصافحتكم ملائكتى فهنيئاً هنيئاً لكم (عطاء غير مجذوذ) ليس فيه تنغيص ولا قصر يد فعند ذلك قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وأدخلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب . إن ربنا لغفور شكور وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد ، ففى الصحيحين أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذى يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة : تمن فيتمنى حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى: تمن من كذا وتمن من كذا يذكره ثم يقول ذلك لك وعشرة أمثاله .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر» الحديث بطوله ، وقال خالد بن معدان: إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبى حاتم

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة (لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) أى تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم فان تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين قال الله تعالى (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) الآية ، وقال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أى كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ،

وقوله (وهم يكفرون بالرحمن) أى هـذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا ماندرى ما الرحمن الرحيم ، قاله قتادة والحديث فى صحيح البخارى ، وقد قال الله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وفى صحيح مسلم عن عبـد الله بن عمر قال : قال رسـول الله ﷺ « إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » (قل هو ربى لا إله إلا هو) أى هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به معترف ،مقربه بالربوبية والإلاهية هو ربى لا إله إلا هو (عليه توكلت) أى فى جميع أمورى (وإليه متاب) أى إليه أرجع وأنيب فانه لايستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمـد ﷺ ومفضلا له على سـائر الـكتب المنزلة قبله (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى لوكان فى الـكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق أوتكلم به الموتى فى قبورها لـكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الاعجاز الذى لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له (بل لله الأمر جميعا) أى مرجع الأمور كلها إلى الله عزوجل ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ومن يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهد الله فماله من مضل ، وقديطلق اسم القرآن على كل من الـكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع ، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ماحدثنا أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ « خفف على داود القرآن فـكان يأمر بدابتـه أن تسرج فـكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأ كل إلا من عمل يديه » انفرد باخراجه البخارى ، والمراد بالقرآن هو الزبور وقوله (أفلم ييأس الذين آمنوا) أى من إيمـان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) فانه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى العقول والنفوس من هذا القرآن الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وثبت فى الصحيح أن رسـول الله ﷺ قال « مامن نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر وإنمـا كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » معناه أن معجزة كل نبى انقرضت بموته وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لاتنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهـدى من غـيره أضله الله وقال ابن أبى حاتم حـدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب ابن الحارث أنبأنا بشر بن عمارة حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى قال قلت له (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لوسيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أوقطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنـا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله هـذه الآية ، قال قلت هل ترون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ ؟ قال نعم عن أبى سعيد عن النبى الله صـلى الله عليه وسلم وكذا روى عن ابن عباس والشعبى وقتادة والثورى وغير واحـد فى سبب نزول هـذه الآية والله أعلم ، وقال قتادة لو فعل هـذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنـكم ، وقوله (بل لله الأمر جميعا) قال ابن عباس أى لا يصنع من ذلك إلا ماشاء ولم يكن ليفعل رواه ابن إسحق بسنده عنه وقاله ابن جرير أيضا وقال غير واحد من السلف فى قوله (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم الذين آمنوا ، وقرأ آخرون أفلم يتبين الذين آمنوا أن لويشاء الله لهدى الناس جميعا وقال أبو العالية قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، وقوله (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بماصنعوا قارعة أوتحل قريبا من

دارهم) أى بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون)وقال (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) قال قتادة عن الحسن (أو تحل قريباً من دارهم) أى القارعة وهذا هو الظاهر من السياق ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا المسعودى عن قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) قال سرية (أو تحل قريباً من دارهم) قال محمد صلى الله عليه وسلم (حتى يأتى وعد الله)قال«فتح مكة» وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد فى رواية ، وقال العوفى عن ابن عباس (تصيبهم بما صنعوا قارعة) قال عذاب من السماء ينزل عليهم (أو تحل قريباً من دارهم) يعنى نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وقتاله إياهم وكذا قال مجاهد وقتادة وقال عكرمة فى رواية عن ابن عباس (قارعة) أى نكبة وكلهم قال (حتى يأتى وعدالله) يعنى فتح مكة وقال الحسن البصرى يوم القيامة ، وقوله (إن الله لا يخلف الميعاد) أى لاينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام)

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه (ولقد استهزىء برسل من قبلك) أى فلك فيهم أسوة (فأمليت للذين كفروا) أى أنظرتهم وأجلتهم (ثم أخذتهم) أخذة رابية فكيف بلغك ماصنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم كما قال تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) وفى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد)

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

يقول تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم مايعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذا تفيضون فيه) وقال تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) وقال (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وقال(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقال (يعلم السر وأخفى) وقال (وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله (وجعلوا لله شركاء) أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان (قل سموهم) أى أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فانهم لا حقيقة لهم ولهذا قال (أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض) أى لا وجود له لأنه لوكان لها وجود فى الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية (أم بظاهر من القول) قال مجاهد بظن من القول ، وقال الضحاك وقتادة بباطل من القول أى إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان * إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال مجاهد قولهم أى ماهم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم) الآية (وصدوا عن السبيل) من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لمازين لهم ما فيه وأنه حق دعوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل ، ومن قرأها بالضم أى بمازين لهم من صحة ماهم عليه صدوا به عن سبيل الله ولهذا قال (ومن يضلل الله فماله من هاد) كما قال (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) وقال (إن تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين)

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) أى بأيدى المؤمنين قتلا وأسرا (ولعذاب الآخرة) أى المدخر مع هذا الخزى فى الدنيا (أشق) أى من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه. فإن عذاب الدنيا له انقضاء وذاك دائم أبدا فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ووثاق لا يتصور كثافته وشدته كما قال تعالى (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) وقال تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا * وإذا ألقوا منها من مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا * قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا) ولهذا قرن هذا بقوله (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى صفتها ونعتها (تجرى من تحتها الأنهار) أى سارحة فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرا أى يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا كقوله (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة) الآية وقوله (أكلها دائم وظلها) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف وفيه قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت فقال «إنى رأيت الجنة ـ أو أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا عبيدالله حدثنا أبو عقيل عن جابر قال: بينما نحن فى صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب يا رسول الله صنعت اليوم فى الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه فقال «إنى عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه» وروى مسلم من حديث أبى الزبير عن جابر شاهدا لبعضه، وعن عتبة بن عبد السلمى أن أعرابيا سأل النبى ﷺ عن الجنة فقال فيها عنب؟ قال «نعم» قال فما عظم العنقود؟ قال «مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر» رواه الإمام أحمد وقال الطبرانى حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا على بن المدينى حدثنا ريحان بن سعيد عن عباد بن منصور عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى» وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم جشاء كريح المسك ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس» ورواه مسلم، وروى الإمام أحمد والنسائى من حديث الأعمش عن نمام بن عتبة سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم: تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال «نعم والذى نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة» قال إن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس فى الجنة أذى قال «تكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه» رواه الإمام أحمد والنسائى وقال الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبدالله بن الحارث عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فيخر بين يديك مشويا» وجاء فى بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائرا كما كان باذن الله تعالى وقد قال الله تعالى (وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) وقال (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى

من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا)

وقد تقدم فى القصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لايقطعها » ثم قرأ (وظل ممدود) وكثيرا مايقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب فى الجنة ويحذر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بماذكر قال بعده (تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) كماقال تعالى (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال بلال بن سعد خطيب دمشق فى بعض خطبه : عباد الله ، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عباداتكم تقبلت منكم أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم ؟ (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون) والله لوعجل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم ، أوترغبون فى طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون فى جنة (أكلها دائم) رواه ابن أبى حاتم

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَئَابِ * وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

يقول تعالى (والذين آتيناهم الكتاب) وهم قائمون بمقتضاه (يفرحون بما أنزل إليك) أى من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) الآية وقال تعالى (قل آمنوا به أولا تؤمنوا — إلى قوله — إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة وكائنا فسبحانه ما أصدق وعده فله الحمد وحده (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) وقوله (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) أى ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل اليك وقال مجاهد (ومن الأحزاب) أى اليهود والنصارى (من ينكر بعضه) أى بعض ما جاءك من الحق وكذا قال قتاده وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كما قال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولاأشرك به) أى إنما بعثت بعبادة الله وحده لاشريك له كما أرسل الأنبياء من قبلى (إليه أدعو) أى إلى سبيله أدعو الناس (وإليه مآب) أى مرجعى ومصيرى . وقوله (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله (ولئن اتبعت أهواءهم) أى آراءهم (بعد ماجاءك من العلم) أى من الله سبحانه (مالك من الله من ولىّ ولا واق) وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا اليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِئَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَٰبٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يامحمد رسولا بشريا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم وجعلنا لهم أزواجا وذرية وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ) وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أما أنا أفأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أنبأنا الحجاج

ابن أرطاة عن مكحول قال : قال أبو أيوب : قال رسول الله ﷺ « أربع من سنن من المرسلين . التعطر والنكاح والسواك والحياء » وقد رواه أبو عيسى الترمذى عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غيلان عن الحجاج عن مكحول عن أبى الشمال عن أبى أيوب فذكره ثم قال وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال

وقوله (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) أى لم يكن يأتى قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (لكل أجل كتاب) أى لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها وكل شىء عنده بمقدار (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وكان الضحاك ابن مزاحم يقول فى قوله (لكل أجل كتاب) أى لكل كتاب أجل يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين فلهذا (يمحوا الله ما يشاء) منها (ويثبت) يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله (يمحوا الله ما يشاء ويثبت) اختلف المفسرون فى ذلك فقال الثورى ووكيع وهشيم عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يدبر أمر السنة فيمحوا الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفى رواية (يمحوا الله ما يشاء ويثبت) قال كل شىء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فانهما قد فرغ منهما ، وقال مجاهد (يمحو الله ما يشاء ويثبت) إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فانهما لا يتغيران ، وقال منصور سألت مجاهداً فقلت أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم واجعله فى السعداء فقال حسن ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك فقال (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) الآيتين قال يقضى فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو مصيبة ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير ، وقال الأعمش عن أبى وائل شقيق بن سلمة إنه كان كثيرا يدعو بهذا الدعاء : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . رواه ابن جرير ، وقال ابن جرير أيضا حدثنا عمرو بن على حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن أبى حكيمة عصمة[1] عن أبى عثمان النهدى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكى : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه فإنك تمحوا ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة

وقال حماد عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عليم عن ابن مسعود بمثله ، وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا حجاج حدثنا خصاف[2] عن أبى حمزة عن إبراهيم أن كعبا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال وما هى؟ قال قول الله تعالى (يمحوا الله ما يشاء) الآية ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان هو الثورى عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبى الجعد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر » ورواه النسائى وابن ماجه من حديث سفيان الثورى به ، وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، وفى حديث آخر « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض » وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سهل بن عسكر حدثنا عبد الرزاق أنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال إن لله لوحا محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت — والدفتان لوحان — لله كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال الليث بن سعد عن زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فى الساعة الأولى منهن ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت » وذكر تمام الحديث رواه ابن جرير وقال الكلبى يمحو الله ما يشاء ويثبت قال يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، فقيل له من حدثك بهذا ؟ فقال أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم سئل بعد ذلك

(١) كلمة عصمة غير موجودة فى نسخة ابن جرير . (٢) وفيها : حماد .

عن هذه الآية فقال يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قولك أكلت وشربت دخلت وخرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب ، وقال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) يقول هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت ، وروى عن سعيد بن جبير أنها بمعنى (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يقول يبدل ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وعنده أم الكتاب) وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب ، وقال قتادة في قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت) كقوله (ما ننسخ من آية أو ننسها) الآية ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (يمحوا الله ما يشاء ويثبت) قال قالت كفار قريش لما نزلت (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر فأنزلت هذه الآية تخويفا ووعيداً لهم إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ونحدث في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم ، وقال الحسن البصري (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قال من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله ، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله وقوله (وعنده أم الكتاب) قال الحلال والحرام ، وقال قتادة أي جملة الكتاب وأصله ، وقال الضحاك (وعنده أم الكتاب) قال كتاب عند رب العالمين ، وقال سنيد بن داود حدثني معتمر عن أبيه عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون ثم قال لعلمه: كن كتاباً فكان كتاباً ، وقال ابن جريج عن ابن عباس (وعنده أم الكتاب) قال الذكر .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يقول تعالى لرسوله (وإما نرينك) يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا (أو نتوفينك) أي قبل ذلك (فإنما عليك البلاغ) أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به (وعلينا الحساب) أي حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم) وقوله (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) قال ابن عباس أو لم يروا أنا نفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم الأرض بعد الأرض ، وقال في رواية أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية وقال مجاهد وعكرمة ننقصها من أطرافها قال خرابها ، وقال الحسن والضحاك هو ظهور المسلمين على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها وقال مجاهد نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض ، وقال الشعبي لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك ولكن تنقص الأنفس والثمرات وكذا قال عكرمة لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه ولكن هو الموت . وقال ابن عباس في رواية خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها ، وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء ، وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصبهان حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المري بدمشق أنشدنا أبو بكر الآجري بمكة قال أنشدنا أحمد بن نمزال لنفسه .

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها * متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها * وإن أبى عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية كقوله (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى)

الآية وهذا اختيار ابن جرير .

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾

يقول تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) وقوله تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) الآيتين ، وقوله (يعلم ما تكسب كل نفس) أى أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ومجازى كل عامل بعمله (وسيعلم الكافر) والقراءة الأخرى الكفار (لمن عقبى الدار) أى لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا ، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون (لست مرسلا) أى ما أرسلك الله (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى حسبى الله هو الشاهد على وعليكم ، شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان ، وقوله (ومن عنده علم الكتاب) قيل نزلت فى عبد الله بن سلام . قاله مجاهد وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم النبى ﷺ المدينة ، والأظهر فى هذا ما قاله العوفى عن ابن عباس قال هم من اليهود والنصارى ، وقال قتادة منهم ابن سلام وسلمان وتميم الدارى ، وقال مجاهد فى رواية عنه هو الله تعالى وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ويقول هى مكية وكان يقرؤها (ومن عنده علم الكتاب) ويقول من عند الله ، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصرى . وقد روى ابن جرير من حديث هارون الأعور عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها (ومن عنده علم الكتاب) ثم قال لا أصل له من حديث الزهرى عند الثقات ، قلت وقد رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من طريق هارون بن موسى هذا عن سليمان ابن أرقم وهو ضعيف عن الزهرى عن سالم عن أبيه مرفوعا كذلك ولا يثبت والله أعلم . والصحيح فى هذا أن (ومن عنده) اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به كما قال تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) الآية ، وقال تعالى (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) الآيه وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بنى إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة . وقد ورد فى حديث الأحبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة . قال الحافظ أبو نعيم الاصبهانى فى كتاب دلائل النبوة وهو كتاب جليل حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا محمد بن مصفى حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده عبد الله بن سلام أنه قال لأحبار اليهود إنى أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدا فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فوافاهم وقد انصرفوا من الحج فوجد رسول الله ﷺ بمنى والناس حوله تقام مع الناس ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال « أنت عبد الله بن سلام؟ » قال قلت نعم ؟ قال « ادن » قال فدنوت منه قال « أنشدك بالله يا عبد الله ابن سلام أما تجدنى فى التوراة رسول الله ؟ » فقلت له انعت ربنا ، قال فجاء جبريل حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال له (قل هو الله أحد الله الصمد) إلى آخرها ، فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتم إسلامه ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجذها فألقيت نفسى فقالت أمى: لله أنت لو كان موسى بن عمران ما كان

لك أن نافى نفسك من رأس البحلة فقلت والله لأنا أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بعث . وهذا حديث غريب جدا آخر تفسير سورة الرعد ولله الحمد والمنه

﴿ تفسير سورة إبرهيم عليه السلام وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور (كتاب أنزلناه إليك) أى هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم (لنخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغى إلى الهدى والرشد كما قال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) الآية . وقال تعالى (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور) الآية وقوله (بإذن ربهم) أى هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم (إلى صراط العزيز) أى العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ماسواه (الحميد) أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق فى خبره وقوله (الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعا وقرأ آخرون على الاتباع صفة للجلالة كقوله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض) الآية وقوله (وويل للكافرين من عذاب شديد) أى ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك ، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة أى يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم (ويصدون عن سبيل الله) وهى اتباع الرسل (ويبغونها عوجا) أى ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة عائلة وهى مستقيمة فى نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم كما روى الأمام أحمد حدثنا وكيع عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « لم يبعث الله عزوجل نبيا إلا بلغة قومه » وقوله (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ويهدى من يشاء إلى الحق (وهو العزيز) الذى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن (الحكيم) فى أفعاله فيضل من يستحق الاضلال ويهدى من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته فى خلقه أنه مابعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم واختص محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعموم الرسالة إلى سائر الناس كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم